L’Algérie française vue par un Indigène

أ.ميدان كلثوم

تلخيص لكتاب مع تقييمه: "L’Algérie française vue par un Indigène"

"لشريف بن حبيلس": المطبعة المشرقية، الإخوة فانتانا الجزائر، 1914، 195 صفحة.

التعريف بالكتاب:

وهو كتاب "الجزائر الفرنسية برؤية أهلي" كتاب بالفرنسية لشريف بن حبيلس، مطبوع عام 1914 بمطبعة الإخوة فانتانا بالجزائر.

وهو خلاصة لتفكير نخبة جزائرية حول مشكل كان مطروحا في العشرينيات، وهو مشكل "التعليم" ويعد شهادة اعتراف وملاحظة جزائري حر من الأهالي، عاش وسطهم وفكر في نشر شهادة وإبداء رأيه حول ما أنجزته الإدارة الفرنسية في مجال التعليم وما تحملته من مشاق لتعليم الجزائريين. كما يعد شهادة لجزائري تربى وكبر فوق مقاعد المدرسة الفرنسية مدين لها بالمعرفة التي اكتسبها أحب فرنسا وأحب الاسم الذي ينادونه به "فرنسي". ببساطة يريد الكاتب من خلال هذا الكتاب توضيح عرفانه لفرنسا والمساهمة في وضع حجر في النصب الضخم الذي أنجزته الجمهورية الثالثة فوق أرض الجزائر، حسب رأيه.

الكتاب يحتوي على قسمين، القسم الأوّل جاء في سبعة فصول يتقدّمهم تمهيد وتنهيهم خاتمة، تناول فيه مواضيع مختلفة متعلّقة بالأمن، الاحتلال، المدرسة، البلديات المختلطة والنخبة الجزائرية.

أما القسم الثاني فيشمل أربعة فصول، تتناول مواضيع الأهالي والحضارة والوفاق بين الشعوب وكذلك العرفان بالفضل الفرنسي على الجزائر وأسباب تخلّف المسلمين.

تقديمه:

يستهل الكاتب في القسم الأوّل بتوضيح قضية هامة اتفق عليها الجميع ألا وهي قضية الأمن الذي تحقق، ومزاياه على الجزائريين. فحسب الكاتب كانت الجزائر قبل الاحتلال وكرا للقراصنة ولقطاع الطرق، لم تعرف الهدوء ولا الطمأنينة إلا عندما أصبحت فرنسية. الحروب والسرقة والخلافات بين الحكام كانت موجودة، بداية من القالة شرقا إلى بني صاف غربا. إنّها الفوضى والاستهتار. هكذا كانت عليه الحالة الاجتماعية لمسلمي شمال إفريقيا في ظل الإدارة التركية القاتلة. إن التاريخ يذكر ولسنا هنا بحاجة لدراسته أن الاقتصاد كان معدوما فالفلاح كان يعيش في رعب دائم من المغيرين إلى أن جاءت فرنسا –ويستعمل عبارة تدخل وليس احتلال - مستدلا بحاكم فرجيوة "بوعكاز عاشور" واصفا

قساوته وجبروته ومتطرقا إلى الأساليب التي كان ينفذ بها أحكام الإعدام لمعاقبة المخالفين.

هذا الوحش حسب رأيه ظل على سيرته إلى غاية تاريخ نفيه، يزرع الرّعب والهلع في قسنطينة والمناطق المجاورة الخصبة، ورغم ذلك كان الأهالي في عهده يحسون بالأمان ومتحسرين على وقت مضى ومعه الأمان.

يذهب الكاتب إلى نفي ذلك فيؤكد أن الذين تحسروا على عهد ما قبل التدخل مخطئون ومحتالون، واستنتاجاتهم غير مبنية. فليس هنالك مجتمع خال من المفسدين فالعنف واللاّأمن قد تراجعا حتى أن تثبيت الأمن هو من الانجازات العظيمة التي جلبتها فرنسا للأهالي، الذين من واجبهم التعاطف معها وشد أزرها. وهي التي لم تنج إدارتها من الانتقاد، بداية بالمعمر الذي يطالب بالإصلاح وبالأجور التي يعتبرها مكافأة على عمله، وآخرون يرون أن الأهلي هو الذي يحتاج إصلاح أحواله. فأجرته قليلة وضرائبه كثيرة. إن الانجازات التي قامت بها فرنسا في الجزائر تتطلب من الأهالي المساهمة فيها بثقافتهم لأنهم هم المتمتعون بهذا التطور الذي عاد عليهم بالرخاء.

كما يضيف الكاتب أن اللاّمساواة في الحقوق لا يقبلها أحد والحقيقة أن هنالك تغييرا كبيرا لصالح العمال الأهالي، وهذا إن

دلّ على شيء فإنما يدل على اعتراف الإدارة الفرنسية بنقائصها بسبب تهاون المسيّرين لكن عزاءنا في ذلك هو التطور الاجتماعي الذي أدخل البلد في عهد جديد من الرّخاء.

يعتبر الكاتب الاحتلال عاملا من عوامل التقارب مستدلا في ذلك بعلاقة المعمر بالأهلي والتي يعتبرها علاقة إيجابية وتكاملية فهما متعاونان لتوحيد الجهود، جمعهما القدر على الفرح والحزن، اهتمامهما مشترك فلا مصير للمعمر دون الأهلي، هذا الأخير الذي يعد خزانا لليد العاملة.

في تطرق الكاتب لقضية الهجرة نحو سوريا و اعتبرها مشكلة للمعمر، فهي لو استمرت ستدفع بهذا الأخير إلى حزم أمتعته والعودة، لأن نقص اليد العاملة له أثره على الاقتصاد الفرنسي. المعمر قطع البحر وجاء واندمج مع الأهالي في الجزائر وهو يجهل لغتهم وعقليتهم وعاداتهم لكنه يبذل الكثير للارتباط بهذه الأرض وطنه الثاني.

ثم يثني الكاتب على مزايا المعمرين الذين علموا الزراعة الحديثة للأهالي، فإنجازات فرنسا في الجزائر جديرة ببقائها بأرض الجزائر، هذه الأرض التي كانت بورا فأنتجت وتراكمت كنوزها فوق أرصفة الموانئ. (يعطي مثال مدينة بوفاريك التي كانت موطن للطاعون والحمى ثم تحولت إلى أغنى منطقة

بالجزائر اختفت تحت ظلال الصنوبر والسرو التي غرستها أيادي عربية) هذا هو التعاون الفرنسي -الأهلي. ألا يستحق التأمل فيه؟ إن هذه الأعمال هي التي ترسخ التحالفات وتنمي الصداقات. هكذا يفهم الاحتلال عندنا فهو أحسن وسيلة للتقارب. عددّوا مزاياه فنحن له مدينون.

ومع ذلك له اعتراض على بعض الأشياء، فهو لا يعجبه المحتكرون الذين يبتلعون الملكيات الصغيرة للأهالي وصغار المعمرين في حين تقف الإدارة عاجزة عن حماية الأهالي من جشع المرابين. المعمر يبيع الأرض ويذهب إلى المدينة فيتعوّد على آلياتها، أما الفلاح الذي لا يعرف من العمل إلا الفلاحة فيجلس يلوم الإدارة.

ماذا نفعل حتى ينجنب الأهالي هذه المتاعب؟ للأسف أن معرفتنا لا تتعدى معرفة الإدارة لذلك. الإدارة وفرت وسائل عديدة من أجل تغيير الحالة المادية للأهالي وعملت على تقارب دون اصطدام. فالأمن والاحتلال هما اللذان ساهما في هذا التقارب. ولانتمائه كان لابد من اللجوء إلى العقول والأفكار، فتربية شعب ظل مدّة طويلة متخلّفا ليس بالأمر السهل ورغم ذلك فقد اضطلعت الإدارة الفرنسية بالمهمة.

كان الحكم بحاجة إلى موظفين من الأهالي ولذا استدعت الحاجة إلى تعليمهم لكن ما هو التعليم الذي سيستفيدون منه وكيف استقبله الأهالي؟ وما هي نتائجه؟

لقد وجدت الثانويات والمدارس والمعاهد ومدارس الأكواخ لتمكين الأهالي من الذهاب إليها حتى وإن استدعى الأمر دفع التكاليف، فالإدارة عاجزة عن منح المساعدات للجميع ومنذ ثمانين سنة من رفرفة العلم الفرنسي الثلاثي الألوان فوق أرض الجزائر تحقق الكثير. ويواصل قائلا:

إن أي شعب جاهل ومتخلف لا يستجيب لنداء المحتل، إنما هو شعب رافض للعلم خاصة عندما يتعلق الأمر بتعلّم اللغة الفرنسية والواقع حتم إيجاد نخبة متحمسة لذلك دفعتهم المصلحة إلى المؤسسة الفرنسية للتعلّم. لقد أعجب الفلاح الأميّ بالمثقفين الجزائريين واقتنع بأهمية وفضل المدرسة وضرورة إرسال أبنائه إليها ذلك أن هدفه هو التوظيف والحصول على منصب في الإدارة. لقد رفض هذا الفلاح التعلّم من أجل العلم، واعتبره مضيعة للوقت وشاطره في ذلك البرجوازي. لذا كان لزاما أن لا يترك المتعلمون دون وظيفة حتى تضمن الإدارة توافد الأميين على مقاعد المدرسة.

لم يكن الأهالي متحمسين ولا متعطشين للتعلّم فتراهم ينشطون أحيانا ويتقاعسون أحيانا أخرى، والحرب ضد الجهل

تتمثل في مضاعفة المدارس للأهالي الذين سيستجيبون لأنّ الخوف زال وحلّ محله الطمأنينة والحياد وهذا ما أكد نجاح الرسالة.

يضيف الكاتب أن الذين يزعمون أن المؤسسات التعليمية خالية منحازون انحيازا أعمى، فهم سياسيون راغبون في إبقاء الأهالي في حالة فكرية متخلّفة حتى يسهل عليهم استغلالهم، وعزوف الأهالي عن التعليم يرجع لعجز الإدارات في توفير المدارس للجميع.

أما نتائج التعليم فيذكر المؤلف أنه في ظرف أربعين سنة (1911/1871) وجد بالجزائر أربعة مئة وخمسون مثقفا لمجموع تجاوز الخمسة ملايين وسبب ذلك هو عدم وجود قابلية لدى الأهالي للتعلم، وليس بسبب رفض الإدارة لذلك. إن الإدارة كانت تريد تركيز الجهود الحضارية على فئة قليلة من الأهالي وبمراحل لتكوّن نخبة من المفكرين المتحضرين. أما الأهالي فكانوا يريدون المزيد من المقاعد الدراسية من خلال إنشاء أكبر عدد ممكن من المدارس فأعطوا بذلك الأولوية للكمية على حساب النوعية وبين هذين التيارين تأرجحت الإدارة لسنوات.

يعد الكاتب من أنصار الفئة التي تدعو إلى تكوين نخبة من الأهالي رافضا حشو أذهان الصغار بمبادئ الرياضيات من طرف معلمين يفتقرون للكفاءة، وهذا لا يعني نكرانا للدور الذي لعبته

المدارس الابتدائية الإسلامية وإنما لا يجب تخصيص برامج للأهالي تتماشى وذهنياتهم دون التوافق مع شهاداتهم.

يعتبر الكاتب أن اللباس ليس معيارا، بل العقل، مستدلا في ذلك بالذين يرتدون اللباس التقليدي فهم النجباء والفائزون في الثانويات بالمراتب الأولى، في الرياضيات والفرنسية، عقول الأهالي حسب رأيه قادرة على عكس الصورة التي تقدّم لهم شريطة أن يكون المعلم في المستوى وهذا المستوى لا يوجد إلا في المدرسة الفرنسية التقليدية فهي الأكثر جدية من غيرها ومع ذلك لم تسلم من الانتقادات الكثيرة وحتى الصحف الجزائرية..

ثم يعود الكاتب لانتقاد التعليم الإسلامي الذي يقول عنه أنه أنتج نخبة من الأهالي لا تزال بحاجة إلى إصلاح لأن تعليمها لا يختلف عن تعليم الأديْرة القديمة الفرنسية أو الزوايا التقليدية الحالية، في حين أنتج التعليم الفرنسي قضاة أدخلوا العصرنة على طرق عملهم لم يعرفها قضاة من قبلهم ونزاهتهم لا يطعن فيها أحد. هذا ويبدي الكاتب إعجابه وتفاءله بالإدارة الفرنسية وبمناهج تعليمها التي تكتسي نكهة خاصة من المثل الفرنسية. هذه المثل احتفظ بها الأطفال وكبروا وهم مدينون لها بالوفاء وهذه نتيجة كافية.

وعن قانون الإندجينا يرى الكاتب أنه الجهاز الضامن للأمن وقد أعطى نتائجه رغم بعض النقائص فيه والتي هي من صنع بعض الموظفين المنعدمي الضمير ارتكبوا أخطاء أو رفضوا تصحيحها فجلبوا بذلك الانتقاد لهذه المؤسسة. إن قانون الإندجينا في نظر الكاتب من أكبر إنجازات فرنسا التي يجب أن نقدّم لها يد المساعدة.

أما البلديات المختلطة فمن الأسباب التي دفعت بفرنسا إلى تطبيقها ضرورة التكفل بالأمن والتعليم داخلها حتى يتقوى المجتمع الإسلامي على الرغم من أن هذه البلديات كانت محل انتقاد كبير. والحقيقة أن الذي جلب هذا الانتقاد لها هم موظفوها، القائد والحاكم أي رئيس القبيلة ورئيس الدائرة. معظمهم أميون جاهلون للقوانين الإدارية وحتى للغتهم، لا يعرفون الإمضاء، صدورهم ثقيلة بالنياشين رمز الولاء اقتصر دورهم في الإدارة على طلب المكافآت وفرض الضرائب وهذا سلوك موروث عن نظام ساد قبل 1830 دون استثناء المفتي وحتى الإمام منه.

خلاصة القول أن القياد لم يفهموا جيدا المهمة الملقاة على عاتقهم، فعوض أن يراقبوا كانوا هم بحاجة إلى من يراقبهم فجعلوا من اللباس الذي يرتدونه وسيلة للهروب من المضايقات، بلا وعي يجب إصلاح حالتهم حتى لا يشجعون على الفساد الإداري.

أما الحاكم فالكاتب يذكر نوعين، الأول هو المنتبه لمطالب إدارته المتغلغل وسط المجتمع للتعرف على حاجياته يوفرها لهم وهذا النوع يشرّف. أما النوع الثاني أخذت منه انشغالاته كل وقته فاكتفى بخدمة المعمرين دون الاتصال بالأهالي.

أما عن الحالة الاجتماعية للأهالي فيرى الكاتب أن هنالك شعبين أو مجموعتين مختلفتين هما القبائل أي سكان الجبال ذلك الجنس الخشن والقبائل العربية المنتشرة في التراب الجزائري، والكراغلة.

هذه المجموعات حافظت على عاداتها وتقاليدها البالية وتشبعت للأسف بالتعصب الديني أكثر من تشبعها بالعبادة، الشيء الذي حال دون وصول فرنسا إلى عقولهم أو أذهانهم.

لقد شمل البرنامج الفرنسي الرامي إلى تحسين الأوضاع المادية للسكان، شمل الفلاحين الذين قدموا الكثير لهذه الأرض ومع ذلك ننسى في كثير من الأحيان معاناتهم، هؤلاء الفلاحون تحسنت وضعيتهم بفضل المؤسسات الموجودة، كالقروض الزراعية، ومؤسسات الادخار والضمان الاجتماعي والمكاتب الخيرية والمستوصفات. فهل قصرت الإدارة في مهمتها أم تستحق التشجيع؟

في جزء آخر من الكتاب يتناول الكاتب موضوعا يفضح ممارساته في المجتمع الجزائري وهو موضوع التأويلات الدينية

والخرافات ويذكر السيد عبد القادر مجاوي والدور الذي قام به في توحيد الآراء والإقناع ذلك أن طبقة المعتقدين هذه كفيلة بتغيير كثير من الأمور في نظره.

ينتقل الكاتب إلى موضوع آخر وهو موضوع النخبة التي مثلت بحق المجتمع الجزائري. فيعرفها على أنها كوكبة من الشبان الذين كبروا في الجامعات الفرنسية، كانوا متفوقين بعلمهم، عددهم قليل ويرغبون في القيام بدور هام على مستوى مجتمعاتهم، هذه الطبقة قد تعرضت للانتقادات وحتى الاتهامات فما العيب في أن يلعبوا دورا هاما في مجتمعهم فثقافتهم كافية رغم جنسيتهم.

يبدو موقف الكاتب من التجنس موقفا طبيعيا فهو يشجع من يرغب فيه فالمشكل الحقيقي حسب رأيه ليس في التجنس خاصة وأن هذه النخبة المتجنسة هي التي مثلت بحق برنامج الشباب الجزائري وقدمت العرائض وتبنت مطالب المسلمين الفرنسيين عام 1912 وكان لها موقف من التجنيد كما طالبت بتحسين الأوضاع الاجتماعية للجزائريين.ودافعت عن الوطن والتمثيل النيابي والإجراءات القمعية وكذا القوانين الاستثنائية مع إعادة النظر في عدد الممثلين على مستوى المجالس ليكون لهم تأثير في الانتخابات. هذه هي مطالب النخبة.

في القسم الثاني من الكتاب يتناول الكاتب محاضرات وخطب ألقيت في نادي صالح باي بقسنطينة، وهي في نظره محاضرات لتوضيح وتوعية الرأي العام حول موضوع المصالحة والسلام بين الإدارة والأهالي.

وقد جاءت هذه المحاضرات للرّد على بعض الادعاءات التي روجت فشل مشروع الإدارة الحضاري. ولم ينس أن يوجه الكاتب في القسم الثاني شكره وثناءه للسلطات الفرنسية في سعيها الحثيث من أجل العلم والتعليم الذي استفاد منه الكثير كما يرجع أسباب تخلف الجزائريين إلى التعصب والجهل اللذين جعلا من الإنسان عدوا لأخيه فالمسلمون هم الذين تسببوا في فقرهم المادي والمعنوي فهم متخلفون لأنهم ضحايا أمراض رهيبة كالجهل والفقر وعندما سيتوقفون عن الشك والتشكيك في نوايا فرنسا سيقتنعون بأهمية التعليم وبالرسالة الحضارية التي تشهد عليها الإنجازات القائمة.

تقييم الكتاب:

لقد ذكرت في المقدمة أن الكتاب هو عبارة عن خلاصة تفكير نخبة جزائرية حول موضوع كان مطروحا في بداية القرن العشرين وهو التعليم الفرنسي ووجوب الاهتمام به من أجل التطور مع تقبل كل ما أنجزته فرنسا في الجزائر لأنه حقا يعد حضارة.

إن الدارس للكتاب والمتمعن في بعض عباراته ذات المدلول البعيد سيقف عند حقيقة هامة هي أن هذه الشهادة جاءت من نخبة جزائرية تشبعت بالثقافة الفرنسية منبهرة بحضارتها ومقتنعة بضرورة الذوبان وسط هذه الحضارة. فلا تكفي الكاتب أنه انتقد وضع مجتمعه دون أن يحمّل فرنسا مسؤولية ذلك بل يذهب لربطه بالنظام الذي كان سائدا قبل الاحتلال ويحمل فشل فرنسا في مشاريعها للأهالي الرافضين للتطور والجاهلين لأمور التسيير.

كما يثني الكاتب على النخبة الجزائرية التي ينتمي إليها تلك النخبة التي تصطدم كل مرّة بالتحجر والتعصب الديني للأهالي. ويذكرنا في كل مرّة بنشأته في الأكواخ الجزائرية وبتربيته فوق مقاعد المدرسة الفرنسية وهذا يكفيه فخرا.

لم تأخذ بعض الكلمات في الكتاب معناها الحقيقي بل استصغرها الكاتب إذ يسمي الاحتلال بالتدخل وتجنب ذكر

عبارة "الجزائر" بل فضل استعمال "شمال إفريقيا". وشبه الاحتلال"بالفتح الكريم".

يقول الكاتب أن كتابه موجه للجزائريين لماذا؟

هل يطلب منهم مراجعة موقفهم من الاحتلال أم هي محاولة تظليل للحقيقة؟ أم وجد نفسه مضطرا لذلك بحكم هويته الجديدة فهو فرنسي متجنس ومثقف بالثقافة الفرنسية. وهذه الهوية الجديدة هي التي سمحت له بتشبيه الأهالي بالشعب الحقير الذي لم يستجب لنداء العلم..

وفي وصفه للنخبة التي ينتمي إليها يقول إنها النخبة الوحيدة التي تحصلت على تكوين صحيح وهي متفوقة لكي تلعب دورا فعالا في المجتمع الجزائري وهي النخبة الوحيدة التي تجرأت وقدمت لائحة مطالب لفرنسا...!

إن القارئ للكتاب سيكتشف من الوهلة الأولى أسلوب التغليط والتمويه فيه وحتى التهجم على الأهالي وتحميلم مسؤولية ما لحق بهم. فهل كان لهم الاختيار؟

لا ينكر أحد أن الإدارة الفرنسية وضعت برنامجا تعليميا للجزائريين!! لكنه ليس بالبرنامج الذي كان يطلبه الجزائريون فلم يكن مستجيبا لا من بعيد ولا من قريب لمطالب الجزائريين، بل

هدف إذابة ومسخ وطمس المجتمع الجزائري وتجريده من هويته فلو قدّر له النجاح لكانت الجزائر اليوم ولاية فرنسية.

الواضح أن الكاتب والنخبة التي ينتمي إليها لم تفوّت الفرصة في تمجيد عظمة فرنسا وكأنه مطلوب منها التملق حتى تتموقع وسط هذا المجتمع الفرنسي.

أما أنا فلم أجد ما هو أحسن مما كتبه "محمد راسم" للرد على هؤلاء الذين يتغنون بفضائل فرنسا في جريدة "ذو الفقار" عام 1913 حيث قال:

"إن الذين تخلقوا بمفاسد التمدن الحديث ممن يرضون بسياسة المداجاة والنفاق مع الاستعمار لأنه ملك أفواههم بالدنانير فلم يستطيعوا تكلما وأثقل صدورهم بالنياشين المزيفة فطأطأوا رؤوسهم. وإن كل بلاء نزل بالمسلمين الجزائريين فمرده إلى الذين جمعوا بين الجنسيتين، فباعوا جنسيتهم ودينهم عندما فضلوا عليها مفاسد التمدن الحديث وباعوا ضمائرهم وأوطانهم عندما باتوا ألعوبة بين أيدي السلطات لقاء منصب أو لقب ووسام".